

عَرَفَ العرب علم الأدب قبل الإسلام، وإذا كان بالإمكان تَتَبُّعُ بداية آداب مثل اللاتينية والفارسية؛ فإنه لا يمكن تَتَبُّعُ بداية علم الأدب العربي؛ فإنهم لم يأخذوا شيئاً مهماً من أدبهم، على الرغم من روعة الأدب اليوناني. كما أن الأدب العربي لم يتأثر بالطابع اليوناني، وإن اطلعوا على بعض الكتب الأدبية اليونانية مثل كتاب الشعر لأرسطو، والإلياذة والأوديسا - ملحمتي اليونان المعروفتين - بل على العكس؛ فإن الأدب العربي كان له أثره في الآداب الأوربية - كما سنرى في موضعه - التي تَفَرَّعَتْ من الأدبين اليوناني واللاتيني، ولا ريب فإن الأدب يُعَبَّرُ عن رُوح الأمة؛ فالأدب العربي هو كذلك من صميم الرُوح العربية والإسلامية[1]. يَعْرِفُ العلماء علم الأدب بأنه: معرفة ما يحتز به من جميع أنواع الخطأ في كلام العرب لفظاً وخطاً. وغاية هذا العلم الإجابة في فني النظم والنثر، إضافةً إلى تهذيب العقل وتزكية الجنان[2]. يقول ابن خلدون: "وإنما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته، وهي الإجابة في فني المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم"[3]. أصل كلمة أدب وأنواعها إن أصل كلمة أدب مجهول، فضلاً عن تطوُّرها خلال العصر الإسلامي؛ بسبب أن العرب غَيَّرَتْ حياتها باتصالها بالبلاد المفتوحة التي كانت لها آداب سابقة، وبانتشار الإسلام بين أهالي هذه البلاد، فكان لكلمة أدب في أول عهد الإسلام معنى ديني يدلُّ على السُنَّة، ثم أصبح يدلُّ على الأسلوب في أي عمل، وإن كان آخر الأمر اقتصر - بصفة عامة - على الإجابة في فني النظم والنثر[4]. المعلقة العشرأماً النظم: فهو الشعر، وهو الكلام الموزون على رَوِيٍّ واحد، ولَقَدِمَ الشعر عند العرب فقد اعتَبِرَ من أعظم معارفهم، وقد وصلنا من الجاهلية بقواعده الموزونة، ونَظَمَ العرب بأنواعه المختلفة، وكان العرب في الجاهلية يعقدون لشعرائهم الأسواق في مواعيد محدَّدة، يجتمع فيها العظماء لإلقاء قصائدهم، وَمَنْ يَنْبَغُ منهم تَعَلَّقُ قصيدته بأركان الكعبة وتُسَمَّى مُعَلَّقَةً. وتتعدد موضوعات الشعر العربي فمنها: الفخر، وتعني المباهاة والتمدُّح بالعصبية والقبليَّة من نَسَبٍ وحسب، وفي المصادر العربية أمثلة كثيرة من المفاخرات التي وقعت في الجاهلية بين شعراء القبائل، والتي كانت تُوَدِّي إلى وقوع حرب وسفك دماء، حتى جاء الإسلام وَحَرَّمَ مثل هذه المفاخرات البغيضة، وقد كان من أشهر شعراء العرب الجاهليين: مهلهل، وزهير بن أبي سلمى، كما كانت هناك شاعرات مشهورات مثل: هند، بمجيء الإسلام الذي حَرَّمَ التفاخر بالعصبية والقبليَّة التي كانت أهم موضوعات الشعر العربي، والتي أدت إلى تفرقة العرب والحرب فيما بينهم، نحا بالشعر منحىً جديداً، إذ نظر إليه نظرة متوازنة، فعاب على الشعراء المنافقين ومدح الصادقين، فقال تعالى: {وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ} [الشعراء: 224-227]. وقد قال الرسول r كما روى أبي بن كعب t: "إِنَّ مِنَ الشَّعْرِ حِكْمَةً"[6]. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: "إذا خفي عليكم شيء من القرآن فابتغوه في الشعر؛ فإنه ديوان العرب"[7]. وقد أَيْدَ الشعراء الدعوة الإسلامية، وشاركوا في معارك التحرير والفتوح، ومدحوا الرسول r والصحابه، وحثُّوا المقاتلين على الجهاد والاستشهاد في سبيل الله، ورثوا الشهداء المجاهدين، وكان من أبرز شعراء صدر الإسلام: كعب بن زهير (ت 26هـ/ 645م) صاحب البُرْدَة، وأبو ذؤيب الهذلي (ت نحو 27هـ/ 648م)، وحسان بن ثابت (ت 54هـ/ 674م). أما في العصر الأموي فتتطور أغراض الشعر، وأُدْخِلَتْ عليه فنونٌ جديدة تتَّصل بالعقيدة الإسلامية من خلال اهتمام الخلفاء والحكام بالشعر من جهة، وتطوُّر الحياة الاجتماعية من جهة أخرى، وظهور الأحزاب السياسية من جهة ثالثة، وذلك لعناية الدولة وأمرائها لحاجتهم إليه، ولشِدَّة تأثيره في الجماهير؛ فقد جعله الأمويون وسيلة لإذاعة محامدهم، وطعن زعماء خصومهم، وبخاصَّة الشيعة والخوارج والزيريين. ومن أشهر شعراء الأمويين البارزين: أعشى ربيعة عبد الله بن خارجة (ت نحو 100هـ/ 718م)، وعدي بن الرقاع (ت 95هـ/ 714م) شاعر الوليد بن عبد الملك، ومن فحول الشعراء الأمويين العراقيين الذين عاشوا في كنف الأمويين: جرير (ت 110هـ/ 728م)، والفرزدق (ت 110هـ/ 728م)، والأخطل (ت 90هـ/ 708م). وبرزَ من شعراء الأحزاب المناوئة للأمويين شعراء الشيعة وأبرزهم: أبو الأسود الدؤلي (ت 69هـ)، والكميت بن زيد (ت 126هـ)، ومن شعراء الخوارج: الطرِمَّاح بن حكيم (ت 100هـ)، ومن حزب الزيبريين: ابن قيس الرُّقَيَّات (ت 75هـ). وظهر في هذا العصر شعراء الغزل بنوعيه العذري الذي امتاز بالبساطة والصدق والرصانة، وبرز فيه: جميل بثينة (ت 82هـ)، وليلى الأخيلية (ت 75هـ). وقد اشتهر به عمر بن أبي ربيعة (ت 93هـ)[8]. أما العصر العباسي فقد شهد ثورة ضخمة في الشعر - كمَّا ونوعاً - من حيث: الموضوعات، ونشأت فيه أغراض لم تكن موجودة سابقاً، فقد ضعف الشعر السياسي، وقَوِيَ شعر المدح والثناء، وازداد الشعر الحكمي، وأسرف الشعراء المتأخرون في استعمال ضروب البديع من جناس وطباق، فازدهرت الحركة الشعرية والأدبية بفعل عملية الامتزاج بين المجتمعات والعناصر المختلفة، وانتقال الثقافات الأجنبية عن طريق الترجمة، وتبلُّور الخلافات السياسية والمذهبية بين الفرق الإسلامية بعضها مع بعضٍ من جهة، فضلاً عن تشجيع الخلفاء والحكَّام للشعراء في بغداد والمدن الأخرى، ولمع في سماء الأدب العباسي شعراء كبار؛

أمثال: بشار بن برد (ت 168هـ)، وأبو تمام حبيب بن أوس الطائي (ت 228هـ)، وابن الرومي (ت 283هـ)، وأبو الطيب المتنبي (ت 354هـ)، وأبو فراس الحمداني (ت 357هـ)، وأبو العلاء المعري (ت 449هـ) [9]. أما الأندلس فقد ابتكر الشعراء الأندلسيون الموشح، وكان الموشح خطوة كبيرة في تطوّر شكل الشعر العربي، فقد أتاح للشاعر حرية التصرف في القوافي، وكان من نتائج انتشار الموشح انبعاث أدب الزجل الشعبي، يقول ابن خلدون: "وأما أهل الأندلس فلمّا كثّر الشعر في قعرهم، استحدث المتأخرون منهم فنّاً منه سمّوه بالموشح" [10]. ومن أشهر شعراء الأندلس ابن زيدون (ت 463هـ)، ومالك إشبيلية المعتمد بن عبّاد (ت 488هـ). النثر وازدهار فن الكتابة أمّا النثر: فهو الكلام غير الموزون، ولم يكن أقلّ ثراءً وخصباً من الشعر، وقد بدأ النثر في صدر الإسلام بسيطاً مباشراً، ويتقدّم الحياة الاجتماعية والعقلية تقدّم النثر، ومن كبار الكتاب الأوائل عبد الحميد الكاتب (ت 132هـ) الذي استوعب شروط الكتابة في رسائله المشهورة التي وجّهها للكُتّاب حتى قيل: "بدأت الكتابة بعبد الحميد، كتاب كليله ودمنة لابن المقفع وازدهر فن الكتابة في العصر العباسي، ومن الذين اشتهروا في فن الكتابة الجاحظ (ت 255هـ) الذي طوّر النثر المرسل، وكذلك ابن المقفع (ت 142هـ). وبلغ النثر مداه في القرن الرابع الهجري، فاشتهر أبو حيان التوحّيدي (ت نحو 400هـ) بالسجع، وابن العميد (ت 366هـ)، ثم طغت بعد ذلك على النثر موجة الزخرفة اللفظية، والإسراف في التأنيق على حساب دقّة المعاني، ويظهر ذلك واضحاً في المقامات ورسائل بعض الكُتّاب المتأخّرين. تُعدّ الرسائل أحد أنواع النثر الفني؛ والرسائل نوعان: الرسائل الرسمية أو العامة، وكانت الرسائل الرسمية في صدر الإسلام والعصر الأموي موجزة واضحة لا تكلف فيها، ثم أخذ كُتّاب الدواوين في العصر العباسي يتأنّقون في الرسائل، ومن أشهر كُتّاب الرسائل: عبد الحميد الكاتب، أو الإخوانيات فهي التي يكتبها صديق إلى آخر؛ ومن أشهر كُتّاب هذا النوع: الجاحظ وابن زيدون. نهج البلاغة وثاني أشكال النثر العربي هو الخطابة، فقد اهتمّ بها المسلمون بعد الشعر؛ وكان للخطابة شأن كبير في الجاهلية وصدر الإسلام؛ فكان العرب يُدربون فتيانهم على الخطابة منذ صغرهم، وقد ضمّت كتب الأدب العديد من الخطب البليغة، ومن أشهر خطباء العصر الراشدي الخليفة الرابع الإمام علي بن أبي طالب ؑ، وقد ضمّ كُتّاب (نهج البلاغة) خطبه ورسائله البليغة، وإن كان فيه الكثير من الخطب التي تنسب إليه ولم يقلها في الحقيقة. كما ازدهرت الخطابة في العصر الأموي؛ فكان العديد من الخلفاء والأمراء - كعبد الملك بن مروان، وزيايد بن أبيه - خطباء يُعولون على الخطابة في إبلاغ الناس مقاصدهم، والتأثير عليهم في نشر مبادئهم وأغراضهم، وقد خلّف لنا هذا العصر عدداً كبيراً جداً من الخطب البليغة في عباراتها، وفي العصر العباسي شهدت الخطابة تراجعاً كبيراً عن العصور السابقة، ولم يبرز من الخلفاء من عُرف بالخطابة. وأشهرها: (مجمع الأمثال)، و(المستقصى في أمثال العرب) للزمخشري [12]، وهو معجم للأمثال العربية مرّتب على حروف الهجاء أوائل الأمثال. ما زال الناس يقرءونه فيبيهرهم بسعة أفقه، ولعلّ أشهر ما قيل في ذلك قصص عنتر أو عنتره، وهو أحد الفرسان السود لقبيلة عبس، وسيف بن ذي يزن من أبطال اليمن، وأبي زيد الهلالي من أبطال المغرب، والظاهر بيبرس سلطان مصر، ومن أبطال الحروب الصليبية والمغولية. وفي القرن الرابع الهجري وُضِعَت القصص الأدبية القصيرة التي تُسمّى المقامات، ومن أشهر كُتّاب المقامات بديع الزمان الهمذاني (ت 398هـ)، تدور حول بطليّن أحدهما عيسى بن هشام، ثم ابن ناقي (ت 485هـ)، والحريري (ت 516هـ) الذي تناولت مقاماته مغامرات أبي زيد السروجي والحارث بن همام، وعن أشهر كتب الأدب يقول ابن خلدون: "وأركانها أربعة دواوين وهي: (أدب الكاتب) لابن قتيبة [14]، وكتاب (البيان والتبيين) للجاحظ [16]، وكتاب (النوادر) لأبي علي القالي [17] [18]. وهناك كذلك كتب أخرى بارزة لا يمكن إغفالها في هذا المجال، أمثال: (العقد الفريد) لابن عبد ربه (ت 328هـ)، و(الأغاني) لأبي الفرج الأصبهاني (ت 356هـ)،